آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية.

تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

السنة الثانية - العدد السادس ربيع الثاني ١٤١٥ هـ / سبتمبر (أيلول) ١٩٩٤

جونية (لبنان) في غرة كانون الثاني سنة ١٩٠٠

صورة غلاف مجلة الرئيس اللبنانية

الثقافة واللغة السواحلية

الدكتور عبد الرحمن أحمد عثمان
جامعة افريقيا العالمية - الخرطوم

تتناول الدراسة اللغة السواحيلية بوصفها إحدى الركائز الأساسية للثقافة السواحيلية لأنها كانت ولاتزال إحدى وسائل الصور بين المكونات العرقية المختلفة كما نتجت في الأساس عن هذا التلاقي والتجانس العرقي، كما إنه لا يتأتى لنا بل ويتعذر فهم المكونات الثقافية الأخرى بمعزل عن اللغة باعتبارها وعاءاً تعبيرياً ذا مدلول تأريخي في النشأة والتطور وما صنعته من خلال هذه المسيرة من علاقات مع اللغات الأخرى في البيئة والقاموس وحرف الكتابة.

يرد بعض المؤرخين تأريخ نشأة اللغة السواحيلية الذي وضعت فيه لبناتها الأولى إلى القرن الثاني الميلادي مرتكزين في ذلك على ما كتبه صاحب كتاب «دليل الملاحة في البحر الأرتري» (الرحلة الدائرية) عندما ذكر أن العرب أخذوا يتحدثون لغة أهل الساحل(١)

وفي ذلك يقول البروفسور سيد حامد حريز «بل يمكن أن نذكر بشيء من الحذر أنه لا يستبعد أن تكون اللبنات الأولى التي بنيت على قرارها اللغة السواحيلية قد وضعت منذ القرن الثاني الميلادي وهذا الحذر لا ينبع من عدم الاطمئنان لهذا الرأي ولكن سببه بعد الشقة وشح الأدلة القاطعة ويحدثنا صاحب «الدليل الملاحي للبحر الاريتيري» أن من بين العرب من استقر في الساحل الشرقي الإفريقي وتزوج من السكان المحليين وتحدث بلغتهم منذ ذلك الوقت البعيد(٢).

ويبدو أن منبع الحذر الذي ذكره البروفسور حريز هو أن البانتو لم يكونوا قد وصلوا إلى الساحل في ذلك التاريخ كما أسلفنا، وبالنظر إلى السواحيلية من حيث البنية فإنها بانتوية، وهذا يعني أن اللغة التي تحدث بها العرب في ذلك التاريخ هي لغة أهل

الساحل المقيمين به حينئذ ويبدو أن الكاتب احترز لذلك بقوله: «بنيت على قرارها» وذلك يعني أن السواحيلية هي تركيبة على قرار تلك التركيبة التي تمت بين لغة إفريقية استعملها عرب في البنية الإفريقية واللفظ العربي. ولقد اقترب الباحثان روش ووايتلي من الحقيقة عندما افترضا أن اللغة السواحيلية بدأت في التكوين بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين(٣) وبالطبع فإن هذا التاريخ يوافق استقرار العرب والمسلمين في سواحل شرق إفريقيا كما أنه يوافق استقرار البانتو.

وتنقل المصادر العربية التي كتبت بعد القرن العاشر الميلادي العديد من الإشارات التي توضح أن السواحيلية بدأت في التطور والاستعمال حتى إنها أصبحت أداة للتعبير الشعري على أيام ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي(٤) فاستعمال الإدريسي (١١٠٠ - ١١٦٦) لاسم انقوجا «Unguja» مشيراً إلى زنجبار بالإضافة لمفردات أخرى عبارة عن موجودات في المنطقة كالموز الذي يحصى له أكثر من نوع واسم «الليكوتدي و«الكيسيكيري» و«المكنونو» يدل على أن السواحيلية قد أصبحت شائعة الاستعمال. وتعد مخطوطة «كلوة» من أوائل المخطوطات السواحيلية التي وجدت مكتوبة بالحرف العربي. ويرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وعلى الرغم من كل ذلك ظلت السواحيلية حبيسة الساحل والجزر المقابلة له حتى مطلع القرن التاسع عشر، ثم تعرضت بعد ذلك لمؤثرات خارجية أثرت قاموسها وأسهمت في نقلها إلى داخل القارة.

والنظر في أصل السوحيلية يؤكد أنها لغة بانتوية واللغات جميعها من أصل لغوي واحد شأنها في ذلك شأن اللغة اللاتينية التي انبثقت عنها عدة لغات جرمانية ورومانية. ويسود اعتقاد بأن اللغة البانتوية الأم انتشرت قبل ٢٠٠٠ سنة انطلاقاً من الحدود الكامرونية النيجرية لتغطي الجزء الأكبر من المنطقة الإفريقية الواقعة جنوب خط الاستواء ويقدر عدد اللغات البانتوية المنشقة عن هذه الأم بثلاثمائة وخمسين لغة منها كيسوهوما في كينيا وكيروندي في بروندي وكينيا رواندا في «رواندا» وكينفالا وتشيليا في «زائير» وكيكانغو في «الكنغو» وكيكامبا في «الغابون» ودوالا في الكاميرون ومبوندو في «أنغولا» وكيماهوارا في موزنبيق(٥).

انبثق عن هذه العائلة اللغوية فرع انتشر في الساحل الشرقي وأخذ اسم الساحل «كيسواحيلي» وهناك العديد من النظريات عن كيفية نشأة اللغة السواحيلية وعلاقتها باللغة العربية.

يرى الافتراض الأول انبثاق السواحيلية عن العربية في أبسط أشكالها إذ أخذ هذا الشكل البسيط يتطور مع طلائع الهجرات العربية للساحل ويؤكد صحة هذا الرأي مجموعة من علماء اللغويات من بينهم العالم س. فوار ١٩٦٧ «S. FULLER» وينحاز هذا الرأي للغة العربية باعتبارها الأصل. ورغم تعاطفنا مع هذا الرأي فليس هنالك أدلة مقنعة تدعمه.

أما الافتراض الثاني فيرى أن السواحيلية مزيج من لغات من أصل إفريقي وأصبحت هي اللغة التي تيسر الاتصالات والمعاملات التجارية بين العرب والأفارقة في مدن الساحل وهذا رأي يظاهره من العلماء ب. كرم B. KRUM وإ. بلومي E. POLOME و«أي جونسون» I. JOHNSON و«ر. روش»

.R. RUESCH

ويرى الافتراض الثالث أن السواحيلية نتاج لاختلاط اللغة العربية بلهجات محلية إفريقية جاء بها أفارقة من عدة قبائل ويختلف هذا الافتراض عن الذي سبقه بأن هذا الافتراض يرى أن الساحل هو البوتقة التي تفاعل فيها هذا الخليط وأن العربية هي الإطار الذي تم فيه هذا التفاعل. بينما يرى الافتراض الثاني أن التلاقي حدث بعيداً عن الساحل وأكثر مؤيدي الافتراض الثالث هم س. هـ. ستايقند C. H. Stigand في ١٩١٥ وبرامفيلد G. W. Brommfiled في ١٩٣١. ويبدو أن هذا هو الافتراض الراجح.

ويرى هـ. وايتلي «W. H. Whiteley» وكيمارتوندي «Kirmartronde» وكينياموزي «Kinyamwezi» وت. هننبوس «T. Hennenbusch» وشهاب الدين شراغ الدين «Sh. Chiragdin» أن السواحيلية لغة إفريقية بانتوية كانت تستعمل في منخفضات وادي السباكي بكينيا ثم نقلها الناطقون بها إلى مناطق أخرى بالساحل الشرقي(٦). وهناك تم التصاهر بينها وبين اللغة العربية.

وتعزز كل هذه الافتراضات الصلة الوثيقة بين اللغتين العربية والسواحيلية وقد أسهم الوجود الثقافي والإداري العربي في أن تتبنى السواحيلية حصة كبيرة من خاصيات اللغة العربية ويتجلى هذا الأثر في القاموس والصوت والتركيب البنيوي.

ففي مجال المعاجم استعارت السواحيلية مجموعة من المفردات العربية يقدرها العرب السواحيليون بحوالي ٧٥٪ من مفردات السواحيلي. بينما يرى الدارسون المحققون أن هذه المفردات لا تزيد نسبتها على ٤٠٪(٧) وتتأثر بعض مناحي الحياة بقدر أوفى من هذه المفردات. ففي مجال الدين مثلاً نجد ٩٠٪ من المصطلحات مستعارة من اللغة العربية مثل ديني(دين) صلا «صلاة» إماني «إيمان» عبودو «عبادة» زاكا «زكاة» صدق «صدقة» صالى «صلى» توتو «تاب» روحومو «رحمة». والمعلوم أن التوقيت السواحيلي يخضع في مجمله إلى تقسيم أوقات الصلاة عند المسلمين فمثلاً هناك كلمة «الفاجيري» بمعنى الفجر «والظوهوري» و«العاصري» وكذلك الشأن فيما يتعلق بأيام الأسبوع فإنها تنطلق من يوم الجمعة «أجوما» وجمعوسى أي «جمعة موسى» ليوم السبت والجمعة إمبيلي، أي الجمعة الثانية والثالثة والرابعة ثم الخاميسي ليوم الخميس. ثم في مجال الأسرة والحياة في المنزل وفي المجالات التجارية فإن أكثر الأرقام هي عربية ثلاثة، ستة، سبعة، عشرين، ثلاثين، أربعين، مائة، ألف، وألفاظ أخرى كالربح والخسارة والبيع والشراء، وفي مجال السياسة والإدارة نجد «وزارة ياآفيا» لوزارة الصحة، وزارة يافضة لوزارة المالية، و«وزارة يا إلمو» لوزارة التعليم وغيرها. والواقع أن المصطلحات والمفردات العربية في اللغة السواحيلية لا يمكن حصرها ولا تحديد نسبتها لأنك كلما كان لديك معرفة باللغتين كبيرة كان تقديرك لعدد مصطلحات اللغتين المشتركة حسناً وقد قدّم أحد السودانيين المقيمين بتنزانيا رسالة ماجستير عن المفردات المشتركة بين اللغتين واستطاع أن يرد أغلب الألفاظ التي كنا نحسبها بعيدة عن العربية لأصول عربية(٨).

وفي مجال الصوتيات شقت بعض الأصوات العربية طريقها إلى لغة الساحل وفي ذلك يقول ولمرس W. E. Welmers في

كتابه (تركيب اللغات الإفريقية) إن استعمال العرب للغة السواحيلية أدخل عليها أصواتاً صحاحاً جديدة وغير في تركيبها المقطعي وأفقدها التباين النغمي ونقل إليها أصواتاً مثل «الغين» و«الذال» و«الظاء». ويرى الأستاذ هـ. م. باتيبو الأستاذ بجامعة دار السلام «تنزانيا» أن حرف الراء هو أول صوت دخيل على لغات البانتو ويرد في كلمات سواحيلية مثل رفيقي «صديقي» «وراحا هناء» ورحيمو، وقد تسرب حتى إلى الكلمات البانتوية الأصل ليحل محل اللام في كلمات مثل «كوروغا» بمعنى «حرك» وروغا بمعنى سحر(٩). وهناك حركات صوتية أخرى استعارتها السواحيلية من العربية مثل «الثاء والنون والغين» في ثامني «الثمن» و«ظانا» «أظن» و«غالي» «غال». أما باقي الحركات الصوتية العربية فقد تم تحويرها وتكييفها مع الأصوات الرائجة فحور حرف «الخاء» إلى «هاء» كما في «هبارى» «أخبار» والقاف إلى «كاف» كما في عكيلى «عقل» دوكاتي «وقت».

وفي مجال المقومات النحوية استعارت السواحيلية الروابط من اللغة العربية مثل «لكن» و«كما» و«قبل» و«بعد» و«خلف» وكذلك الأمر لما يخص النعت والصفة مثل تياري «جاهز» وبور «جودة» وموهيمو «أساس» ليس لها بادئات تتصدرها «Prefix» كما تتصدر صيغة الصفة أو النعت في اللغات البانتوية. فمن الناحية التركيبية البنيوية الخاصة بطريقة تركيب الجملة وتصريف الأفعال وصيغ الوصول للأمر والنهي والنفي تتفق السواحيلية إلى حد كبير مع نظام اللغات البانتوية ، فطريقة بناء الكلمات وتركيب الجمل يقوم على طريقة تصنيف الكلمات إلى مجموعات. وعلى ضوء ذلك يقسم إلى جذع وأداة تصدير «Prefix» «Stem» ويتبدل نوع أدة التصدير بتنوع الأسماء التي تلحق بها فتلحق «كي» بالأسماء الدالة على معاني اللغات «Kiswahili» «Kiarabu» «كيرابو» وتتبدل في حالة الجمع الي في «Vitabu» «فيتابو»(١٠).

وتتجلى الصلة الوثيقة بين اللغتين العربية والسواحيلية بأن حرف كتابتهم كان واحداً في الماضي وهذه من الميادين التي اشتدت فيها حمى الصراع بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية فمنذ عهد مخطوطة «كلوة» التي عثر عليها البرتغاليون في القرن الخامس عشر الميلادي مكتوبة بالخط العربي إلى أوائل هذا القرن لم تكن السواحيلية ترسم بغير الحرف العربي. وقد حاولت الإدارات الاستعمارية بعد أن استشعرت عمق العلاقة بين الثقافتين الإسلامية والسوحيلية أن تستبدل بالحرف العربي حروف اللاتينيه ونجحت في ذلك مع تقدم الأيام من خلال الصحافة والكتاب ولكن الحرف العربي ظل يقاوم من خلال الكتاتيب والمدارس القرآنية ويدلنا على ذلك نتيجة الاستفتاء الذي تم في بداية الثلاثينات من هذا القرن فقد وجد أن من بين كل مائة شخص في بمبا أربعة وستين شخصاً يكتبونها بالحرف العربي وشخصين يكتبانها بالحرفين وأربعة وثلاثين شخصاً أمياً أما في زنجبار فإن ٥٥٪ يكتبونها بالعربي وسبعة وثلاثين أمياً وسبعة أشخاص لهم إلمام بالحرفين وشخص واحد له إلمام باللاتيني. ولاشك أن الوضع الآن قد تغير لمصلحة الحرف اللاتيني إلا أن أغلب الريفيين الذين لم يلتحقوا بالتعليم المدرسي النظامي لا يزالون يقرأون السواحيلية بالحرف العربي والدليل على ذلك أن منظمة

الصحة العالمية قد اعتمدت كتابة الحرف العربي للغة السواحيلية في برامجها الإعلامية ضد مرض «الإيدز» في الملصقات التي وزعتها في ريف تنزانيا بناء على تقرير السلطات المحلية ١٩٨٩(١١). مما يدل على أن اللغة السواحيلية بالحرف العربي هي أكثر اللغات انتشاراً في تنزانيا.

نختم حديثنا عن اللغة السواحيلية باعتبارها إحدى الركائز المعنوية للثقافة السواحيلية. ومن خلال دراستنا لتاريخ هذه اللغة نجدها قد اعتبرت عامل توحيد بين القبائل الإفريقية فيما بينها وبين سكان الساحل. والسواحيلية الآن أكثر اللغات الإفريقية انتشاراً وتوحد أكبر قطاع من قطاعات القارة «شرق إفريقيا» إذ يتحدث بها أكثر من ستين مليوناً من الإفريقيين(١٢) وإن كانوا لا يتحدثون بها بمستوى واحد. ويرى وايتلي «W. Whitely» في معرض حديثه عن تقدير أعداد المتحدثين بها أنه لا يمكن أن يضع المتحدثون بها في درجة واحدة لذلك لجأ إلى تصنيفهم إلى أربع مجموعات مرتبة حسب رسوخ اللغة وانتشارها بين متحدثيها، على النحو التالي:

١ – الذين يتحدثون بها لغة أم في زنجبار ودار السلام وبقية مدن الساحل والمدن المنتشرة على طول الطريق التجاري القديم في طابورا ودودوما وأوجيجي وغيرها.

٢ – الذين يتحدثون بها لغة ثانية وهم غالبية سكان تنزانيا وبعض الكينيين.

٣ – الذين يتحدثونها في إطار محصور وهم سكان يوغندا وزائير.

٤ – الذين يتحدثونها بصورة غير متمكنة وغير منتظمة كما هو الحال في الصومال وموزمبيق.

ولاشك أن هذا التقسيم لمتحدثي السواحيلية أصبح الآن جزءاً من التاريخ لأن الكتاب الذي نشر فيه و. وايتلي هذا التقسيم طبع في عام ١٩٦٩(١٣) ولابد أن تكون مادته قد جمعت قبل ذلك بكثير فلم تستصحب المؤثرات والآثار التي حملتها رياح العهد الوطني في كل هذه البلاد بلا استثناء ونسبة للسياسات الثقافية التي أصدرتها الحكومة التنزانية فقد أصبحت السواحيلية لغة للتعليم والإدارة والإذاعة والصحف منذ الستينات فأثر هذا الإجراء في من يضعهم «وايتلي» في القسم الثاني لينتقل بهم إلى متحدثين للغة السواحيلية من الدرجة الأولى وهكذا انضم كل قسم إلى القسم الذي سبقه حتى أصبحت السواحيلية الآن هي لغة البانتو الأولى وهم ثلث سكان القارة. لقد امتدت رقعة السواحيلية لتشمل متحدثين جدداً في جنوب السودان وفي الجزر البعيدة مثل موريشص وسيشل وبدأت أجهزة الإعلام الحديثة في توحيد اللغة السواحيلية من خلال المذياع والصحف وانتشرت منها لهجة انغوجا «Kinguju» وهي لهجة أهل زنجبار وقامت العديد من المؤسسات الرسمية والتعليمية والبحثية لتعمل على تقوية وتأصيل السواحيلية فمعهد اللغة السواحيلية في جامعة دار السلام مركز شرق إفريقيا لدراسة التراث الشفاهي واللغات الوطنية «E. A. C. R. O. T. A. N. A. L.» والمجلس الوطني لتطوير السواحيلية «وبرازا» والتأسيسي، كل هذه المؤسسات تعمل مجتمعة لتطوير وتوحيد اللغة السواحيلية. وأصبحت تنزانيا رائدة في هذا المجال. وفي الإطار الإقليمي تهتم منظمة الوحدة الإفريقية بتنمية وتطوير اللغة

السواحيلية فقد ورد في خطاب سالم أحمد سالم نائب الرئيس التنزاني ووزير الدفاع في عام ١٩٨٦ الذي ألقاه في الحلقة العالمية الأولى لتطوير اللغة السواحيلية كلغة اتصال إقليمي قوله:

«إن قرار منظمة الوحدة الإفريقية باتخاذ اللغة السواحيلية إحدى اللغات الرسمية في منظمة الوحدة الإفريقية نابع من ذات اللغة السواحيلية كلغة اتصال إقليمي لا تتكلمها دولة واحدة وإنما تتحدثها عدة دول من شرق ووسط إفريقيا. ومما شجع على ذلك أن اللغة السوحيلية لغة في أصولها بانتوية مثلها مثل لغات كثيرة في إفريقيا مما يجعل إمكان انتشارها كبيراً إذا استعانت الدولة بالمنظمات الإفريقية لهذا الانتشار كما إنه من سعد طالع السواحيلية مقدرتها على الاقتباس من اللغات العالمية وهذه إحدى مزايا اللغات الحية(١٤).

□ □ □

الحواشي :

١ - انظر على وجه التحديد : حرير، المؤثرات العربية على الثقافة السواحيلية، بيروت - دار الجيل ١٩٨٨.

٢ - Zoe & Marsh, Op. cit P

٣ - Whiteley W.; Swahili The Rise of a National Language Lowe and Brydone, London 1975. 01.0 . 28 - 29

انظر ايضاً : Strende, The Pol lagese infast Africa (L.A.L.B.) 1961).

٤ - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تهذيب احمد بك العوامري وآخرين، القاهرة ١٩٣٨، ٢٠١ - ٢٠٥.

٥ - Shihbudin, Chraghdin, and Mayampala, Historia Kiswah. (Nairobi: QU. P Press) P. 13.

٦ - Whiteley Op. cit. P. 3

٧ - مقابلة مع الشيخ خميس اكيدة عضو المجلس الوطني لتطوير اللغة السواحيلية «برازا» «Baraza» بتوجيه من الدكتور شعبان سنغو أستاذ اللغة السواحيلية بجامعة دار السلام.

٨ - إبراهيم بوشا، نحو قاموس ثلاثي السواحيلية والعربية والإنجليزية، تحت الطبع بمطابع جامعة دار السلام.

٩ - هـ. م. باتيبو «Batibo» «إسهام اللغة العربية في إنماء اللغة السواحيلية وتطويرها» رسالة الجهاد العدد ٨٨ مايو ١٩٩٠ م.

١٠ - J. F. Safari; Kiswahili Made Easy; (Chapa ya Pili Nairobi. 1897) P. 17.

انظر أيضاً :

Welmers; W. E; African Languge Structures, B. U. C. 1973.

١٠ - المجلس الاعلى لمسلمي تنزانيا «BAKWATA» توجد هذه المعلومة بدار الوثائق الوطنية التنزانية $ /4030/ NAT Bakwala General Secretrait. "Adam Wapil" La Waziriya Elmu Concerning Islamic Secondary School 93.

١١ - شاهدت هذه الإعلانات على جدران معهد التأسيسي وعند استفساري عن سبب كتابتها بالحرف العربي حصلت على هذه المعلومات من الأستاذ حسين أستاذ قسم اللغة العربية بالمعهد.

١٢ - Salim Ahmed Salim; Address Delivered In the First International Workshop on the Promotion of Kiswahili As a Medium of Regional communication on 16. 12. 1986, East Africa Languages EACROTA NL. P.O.Box 600 Zanzibar Tanzania Tel . 3086/ 32011

١٣ - Whiteley; Op cit. first Published by Methurn, 1962 (77) Salim, A. S; Op. cit. P 4

(78) Bergen, Jan. P. Van; Development and Religion In Tanzania (Published jointly by the ChristianLi SteratureocieMADRAS and the Interuniversity Institute for Missiology and Ecumenical Research Department of Missiology Leiden , The Netherlands India 1981) PP. 22 - 18.

١٤ - David B. Barrel Ed. World Christian Encycolopidia, (Nauob, Oxford University Press, 1982) P 660